مجلة دراسات بيت المقدس، 2018، 18(2):53-75
DOI: 10.31456/beytulmakdis.382482

الخطر الصهيوني والسياسات الدولية في منظور "نجيب عازوري" أحد رواد القومية العربية في مطلع القرن العشرين

حفيظة بن دحمان*

ملخص: عندما تقرأ اسم "نجيب عازوري" لأول وهلة سيتبادر إلى ذهنك أفكاره القومية ونشاطه السياسي لفصل العرب عن الدولة العثمانية في بداية القرن العشرين، وقليل من الناس من يقرن اسم عازوري بنظرته –في ذلك الوقت المبكر– للحركة الصهيونية التي كانت تحفر طريقها بتأنٍّ بعيدا عن أعين الرقباء. هذا العربي المسيحي الذي تكوّن في المدارس الدينية الفرنسية ببيروت وتشرّب من الثقافة الأوروبية بباريس، كان من أوائل من تفطّن ونبّه للخطر الصهيوني على الأمة العربية وعلى السلم العالمي، وفي كتابه الشهير "يقظة الأمة العربية" الذي أصدره باللغة الفرنسية، قرن بين الحركة القومية العربية والحركة الصهيونية والسياسات الدولية، فجاءت فكرة البحث لتفكيك العلاقة بين العناصر المذكورة وتحليل أفكار عازوري من أجل التحقق من مدى الوعي لدى النخب العربية بالخطر الحقيقي الذي كان يهدد الأمة، ومدى صلاحية الحلول التي تم اقتراحها لمواجهة هذا الخطر.

الكلمات المفتاحية: القومية، الصهيونية، الهجرة اليهودية، فلسطين، الدولة العازلة.

Zionist Threat and International Politics in the Perspective of "Negib Azoury": A Pioneer of Arab Nationalism in the Early Twentieth Century

ABSTRACT: *When the name of Negib Azoury is mentioned at first one thinks of his nationalist ideas and political activity to separate Arab provinces from the Ottoman state at the beginning of the twentieth century. Very few people actually associate Azoury's name with his views –at such an early period- on the Zionist movement, which was discreetly operating at that time paving its way forward. This Christian Arab educated in the religious French schools in Beirut and later on in Paris absorbed European culture, was amongst the firsts to be aware of the Zionist danger and warn against it, particularly its danger to the Arab nation and to world peace. In his renowned book "the Awakening of the Arab Nation" published in French, he deliberates on the Arab nationalist movement, the Zionist movements and the international policies. The idea of this paper thus comes to better understand the relationship between the aforementioned elements. As well as analysing Azoury's perspectives to verify the extent to which the Arab elites were aware of the real danger that was threatening the nation, and to what extent the solutions that were proposed to tackle this danger were effective.*

KEYWORDS: *Nationalism, Zionism, Jewish immigration, Palestine, Buffer State.*

* جامعة عبد الحميد مهري "قسنطينة 02" الجزائر، hafida_bendahmane@univ-constantine2.dz

مقدّمة

عندما هممت بكتابة هذه المقالة كان دافعي هو إبراز رأي أحد رواد القومية العربية تجاه الخطر الصهيوني في مطلع القرن العشرين، وكان يحدوني الأمل في اكتشاف إلى أيّ حد كانت الحركة الصهيونية ماثلة للعيان وحاضرة في الوعي العربي منذ ذلك الوقت المبكّر، وما الخطط والأفكار والحلول التي تم اقتراحها لمواجهة هذا الخطر؛ لكني عندما اطلعت على أفكار عازوري في كتابه الشهير "يقظة الأمة العربية" بدا لي كم من التجني والتغليط يمكن أن يقع فيه قارئ الكتاب، بسبب أن الكاتب سعى بكل قوته لإظهار الخطر الصهيوني والتنبيه عليه، لكن بمعزل تام عن السياسة العالمية التي جعلت من هذا الكيان حاجزا بين ضفتي العالم العربي، فكان لزاما على البحث أن يتوغل في هذه الجزئية لتوضيح بعض الحقائق المتعلقة بدعم وإنشاء الدولة اليهودية العازلة في أرض بيت المقدس.

وجدير بالتنويه أن البحث لا يسعى إلى محاكمة عازوري على أفكاره، بقدر ما يرمي إلى تحديد المدى الذي وصل إليه الوعي العربي تجاه الأخطار المحدقة بالأمة، واستعراض الحلول المثلى التي توصلت إليها النخب آنذاك لمجابهة هذه الأخطار، وكشف مواطن الخلل والقصور في الوعي العربي التي ربما مازالت تلقي بظلالها الثقيلة على الفكر العربي إلى يومنا هذا!

وقد تم اختيار شخصية نجيب عازوري وأفكاره عن قصد لاعتبارات عدة، منها أنه يمثّل التيار النخبوي المثقف، وكان بحكم منصبه في الإدارة العثمانية ببيت المقدس من جهة وعلاقاته بالدوائر الغربية من جهة أخرى مطلعا على كثير من الأحداث والحقائق، وهو من أوائل العرب الذين دعوا لمواجهة الخطر الصهيوني وهو لا يزال فكرة وليدة في المهد، وتحدث عن هذا الخطر في كتابٍ مطبوع ومتداول، وتمتع بحماية ودعم فرنسا التي كانت من بين أكبر المشجعين والداعمين للحركة الصهيونية، وبالتالي موقفه من معاداة الحركة الصهيونية وموالاة فرنسا (والغرب عموما) يستدعي حتما التوقف عنده لتفسيره وتحليله.

تدور إشكالية البحث إذن حول مدى وعي نجيب عازوري –بوصفه مثقفًا عربيًّا أولا وصاحب فكر قومي ثانيا– بالمخاطر المتوقعة من صعود الحركة الصهيونية، وهل يُدرج وعيه هذا في إطار الفكر التجديدي والنقدي للظاهرة الصهيونية، أو لا يعدو أن يكون فكرة تقليدية نشأت لديه في ظل ملاحظاته للهجرات اليهودية إلى بيت المقدس كونه اشتغل مساعدا لحاكم مدينة بيت المقدس (1898-1904)، وكيف يمكن المقاربة بين ميل عازوري لفرنسا ونشاطاته –تحت تشجيعها وحمايتها– ضدّ الدولة العثمانية، ومدى وعيه بالدعم الفرنسي المبكّر لليهود من أجل إقامة وطن قومي لهم ببيت المقدس؟

مثل هذه التساؤلات وغيرها سيتم مناقشتها في هذا البحث باستخدام المنهج الاستقرائي النقدي، وقد تم الاعتماد بشكل كلي على الأفكار الواردة في كتاب "يقظة الأمة العربية..." الذي ترجمه

أحمد بوملحم، كونه الأثر الوحيد الذي وصل إلينا من مؤلفات عازوري. وتشكلت الخطة من شق نظري تناول حياة عازوري ووصف كتابه وتلخيص أفكاره، وشق تطبيقي ناقش وحلل أفكار الكاتب بخصوص الموضوع محل الدراسة، ليخلص في النهاية إلى استنتاجات عدة تمت إجمالها في الخاتمة.

نجيب عازوري: المولد والنشأة

هناك اختلاف بين من ترجموا لعازوري حول مكان وسنة مولده، ففي حين يذكر مترجم ومقدّم كتاب "يقظة الأمة العربية" أنه وُلد سنة 1878 في بلدة عازور بمنطقة جزين التي ترتبط ارتباطا مباشرا ببلاد بشارة وتؤلف جنوب لبنان وشمال فلسطين،[1] تشير جريدة السفير في العدد الصادر لها بتاريخ 1/ 10/ 1978، عطفا على الوثائق التي زودها بها رينيه عازوري ابن أخ نجيب عازوري أن هذا الأخير من مواليد بيروت بتاريخ 25/ 12/ 1881، وليس من مواليد بلدة عازور التي ينتسب إليها اسما وينحدر منها والده جرجس حنا عون عازوري.[2]

ومهما يكن، فسواء كان مكان ميلاده في عازور أو بيروت، فإنّ الثابت أن منشأ عازوري كان في بيروت أشهر مدن بلاد الشام، وهي يومئذ تابعة إداريا لولاية بيروت التي تأسست في عام 1887-1888م، تحدها شمالا ولاية حلب، وشرقا ولايتا حلب ودمشق، وجنوبا لواء بيت المقدس، وغربا البحر الأبيض المتوسط. وكانت مدن ولاية بيروت مراكز حيوية لنشاطات اللبنانيين السياسية لأسباب عدة منها أن بيروت كانت مركزا لقناصل الدول الأجنبية، ووجدت بها المؤسسات التعليمية الكبرى والمؤسسات الاقتصادية، وعرفت انتشار الجمعيات العلمية والأدبية والإصلاحية والمكتبات والمطابع، التي تكون قد أثّرت بشكل أو بآخر في تكوين شخصية عازوري وصقل أفكاره. وسواء كانت سنة ميلاد عازوري في 1878 أو 1881، فالأكيد أنه وُلد بعد جلوس السلطان عبد الحميد الثاني على العرش سنة 1876، وعاصر حكمه الذي امتد إلى غاية 1908، سنة انقلاب الاتحاديين على السلطان واستيلائهم على الحكم، وشهد عازوري الأحداث الكبرى التي ميزت هذه المرحلة إلى غاية 1916 سنة وفاة عازوري في القاهرة.

أما الثابت الذي تتفق بشأنه الروايات، فهو أنه تلقى تعليمه الابتدائي والثانوي بمدرسة الفرير (Collège des Frères) في بيروت، ثم انتقل إلى باريس لمتابعة دراسته العليا في تخصص العلوم السياسية، وحصل منها على شهادة الدبلوم، والملاحظ أنّ تعليمه كان كلّه فرنسيا، وهذا ما سيؤثر بلا شكّ في ميله الكبير لفرنسا في ما بعد. وعقب عودته من باريس استفاد من وظيفة في الإدارة العثمانية ببيت المقدس تمثلت في منصب مساعد لحاكم بيت المقدس، شغلها لمدة ست سنوات من 1898 إلى 1904م. ويُذكر أنه استفاد من منصبه هذا بوساطة من الأخوين ملحمة (سليم باشا ونجيب باشا)

والبطريرك الماروني إلياس الحويك، وكان نجيب باشا ملحمة الحارس الشخصي للسلطان عبد الحميد إضافة إلى وظيفته الرسمية: وكيل لوزارة الأشغال العامة، ولا يُعرف على وجه التحديد الملابسات المحيطة بهذه الوساطة أو الدوافع الكامنة وراءها؟[3] لكن المثير أن عازوري أصبح منذ هذا التاريخ رجل إدارة عثماني وفي موقع حساس جدًّا، بيد أنّ فكره وتوجهاته وقناعاته كانت تسير عكس توجهات الإدارة التي يخدمها مثلما سنرى لاحقا.

وخلال هذه المدى، كان على اتصال وثيق باليهود في بيت المقدس، وراقب نشاطاتهم عن كثب،[4] خاصة ما يتعلق بهجراتهم وشراء الأراضي وإقامة المستوطنات. وبحكم وظيفته كان على اتصال بالعامة أيضا إذ كانوا يقصدونه لحلّ بعض القضايا، ولعلّه سمع منهم شكاوى أو انتقادات بخصوص اليهود، لكنه لا يذكر ذلك بوضوح في مؤلَّفه، وما أتى على ذكره جاء فقط في معرض النقد للولاة ورجال الإدارة العثمانيين.[5] ويذكر عازوري أنّه طيلة شغله لمنصبه كان يتردد على القاهرة كلّ شتاء لتمضية الوقت هناك، ويُستبعد أن تكون زياراته هذه للسياحة والاستجمام كما يبدو، فأغلب الظنّ أنّه كان يحضّر لنشاطاته السياسية، أو كان على اتصال مع الفارين من النظام العثماني إلى مصر، مثل الأدباء والصحفيين والمفكرين والتجار والأعيان الذين يحملون نفس أفكاره القومية والانفصالية.[6]

في سنة 1904 غادر عازوري بيت المقدس واتجه إلى باريس للإقامة فيها، وتتضارب الروايات حول أسباب مغادرته لمنصبه، ففي حين يذكر عن نفسه أنّه ترك عمله في الإدارة العثمانية من تلقاء نفسه وبملء إرادته من أجل التفرغ "لخدمة الوطنية والعدالة الإنسانية"،[7] نجد بعض المصادر تشير إلى أنّه تمّ عزله عن منصبه بعد الحكم عليه غيابيا بالإعدام نظرا لنشاطاته المشبوهة ضدّ النّظام العثماني،[8] بينما المصادر العثمانية تذكره بأنه "فرّ إلى باريس"[9] ما يوحي بأنه كان متابعا من طرف المصالح الأمنية، لكننا لم نقف على قرار المحكمة بإعدامه غيابيا! والتساؤل الذي يطرح نفسه هنا: إذا صحّ أنّه ترك منصبه بإرادته، وهو الذي كان يجاهر بعداء الصهيونية ويتوعّد بفضح مخططاتها، لماذا لم يبق في منصبه الذي كان يخوّل له الإشراف على تحركات اليهود والتواصل مع الإدارة العثمانية والمسؤولين وعامة الناس لتنبيههم لهذا الخطر؟

ومهما يكن من أمر، فقد انشغل عازوري طوال مدة إقامته في باريس (1904- 1908) بكتابة المناشير المحرّضة ضد الدولة العثمانية، وأسس سنة 1904م رابطة سُمّيت بـ "عصبة الوطن العربي" (Arabe Ligue de la Patrie) وكان هدفها الذي أعلنته فصل الشام والعراق عن الدولة العثمانية،[10] وهناك من أوعز إلى أن سبب تسميتها بهذا الاسم يعود إلى تأثر عازوري "بالعصبة التي نشأت في فرنسا إثر محاكمات الضابط الفرنسي دريفوس الشهيرة، والتي عُرفت باسم "عصبة الوطن الفرنسي"، وكانت شديدة العداء للنفوذ اليهودي في فرنسا، ولعلّ عازوري أراد أن يُسقِط الظروف الفرنسية آنذاك على الأمة

العربية".[11] وقام في سنتي (1907- 1908) بإصدار مجلته "الاستقلال العربي" التي ضمّنها مقالات سياسية تهدف إلى تأليب الرأي العام ضدّ العثمانيين والسعي لتأسيس مملكة عربية مستقلة.

وبعد انقلاب سنة 1908 وعزل السلطان عبد الحميد وإعلان الدستور العثماني، قرر عازوري العودة إلى بيت المقدس لكي يخوض انتخابات مجلس المبعوثان، لكنه اضطر للفرار نحو القاهرة بسبب حكم الإعدام الصادر بحقه من حكومة الاتحاديين، وبقي هناك يشتغل بالصحافة والأنشطة السياسية حتى توفي سنة 1916 (سنة واحدة قبل وعد بلفور).[12]

حول كتاب "يقظة الأمة العربية"

يبدو أن كتاب "يقظة الأمة العربية في تركيا الآسيوية..."[13] الذي ألّفه عازوري بالفرنسية في باريس ونشره بها سنة 1905 بعد هجرته إليها، هو أوّل مؤلّفاته وأهمها على الإطلاق، ويضاف إليه مؤلفات أخرى ذكرها في كتابه السابق لكن لا أحد استطاع الوصول إليها، وهي: *"الوطن العربي: دراسة معمقة للوضع الراهن ودراسة مستقبل الأقطار العربية الآسيوية؛ الخطر الصهيوني العالمي: تصريحات ودراسات سياسية؛ الدول الأجنبية ومسألة المقدسات المسيحية في الأرض المقدسة: خلاصة تاريخية وعرض للوضع الراهن"*.[14] ويظهر من عناوين هذه الكتب أنه قد جمع جلّ أفكارها في كتابه الأول، ولعله أراد التفصيل أكثر في هذه الأفكار أو إغنائها بمعلومات أخرى. ولسنا ندري على وجه اليقين هل ألّف فعلا هذه الكتب ونشرها، أو إنه كان بصدد فعل ذلك ولم يتسنّ له ذلك لأسباب معينة؟

يندرج كتاب يقظة الأمة العربية ضمن مؤلفات الفكر القومي العربي الذي بدأ بالظهور والانتشار بشكل لافت للانتباه منذ النصف الثاني للقرن التاسع عشر، وكان رواده عموما من المثقفين بالثقافة الغربية والمتخرجين من المدارس الحكومية الحديثة أو مدارس الإرساليات والطوائف المختلفة. وعند صدوره بباريس أثار الكتاب حفيظة السلطات العثمانية، وأصدرت تعليمات بمنع تداوله وانتشاره وإدخاله إلى الأراضي العثمانية بأي شكل،[15] وبسبب هذه الرقابة لم يتمكن المؤلّف من إيصال أفكاره إلى أنصاره ومؤيّديه في الداخل العثماني، وقد وُجّهت انتقادات عدة لهذا الكتاب لأنّه تمّ تأليفه باللغة الفرنسية ونُشر في فرنسا وتعاطف مع فرنسا،[16] في حين أن قضيته الأساسية كانت "عربية" بحتة، فلم يُتَح للكتاب التأثير في نشطاء القومية العربية رغم وصول نسخ منه إلى بعضهم.[17]

يحتوي الكتاب على مقدمة وتمهيد قصيرين وثمانية فصول، خُصّص الفصل الأوّل منها لوصف فلسطين، وتناول في بقية الفصول سياسات الدول الكبرى: روسيا، بريطانيا، فرنسا، ألمانيا والنمسا، إيطاليا، الولايات المتحدة الأمريكية، تركيا. ويمكن تقسيم الكتاب حسب الأفكار المتناولة فيه إلى ثلاثة محاور رئيسية هي:

1. التعريف باليقظة العربية وباتجاهها كما يراه عازوري.
2. تقويم السياسات الغربية وآثارها في المستقبل العربي.
3. التنبيه لخطر الصهيونية العالمية[18].

افتتح عازوري مؤلّفه بمقدمة قصيرة أشار فيها لبيان الحزب القومي العربي الموجَّه للدول الكبرى، والذي ينذر بالتحول الكبير الذي سيحصل على مستوى "تركيا"، ويقصد بذلك التحضير لانفصال العرب عن الدولة العثمانية وتأسيس الإمبراطورية العربية التي تمتد من وادي دجلة والفرات إلى برزخ السويس، ومن البحر المتوسط إلى بحر عمان، يكون حاكمها –حسبه– سلطانًا عربيًّا بنظام ملكي دستوري، وتخضع الحجاز والمدينة المنورة لسلطان ديني من قريش، ويقترح على الدول الأوروبية مباركة هذه الدولة في مقابل أن تبقى مصالحهم في المنطقة محترمة.[19]

وفي ختام هذه المقدمة يربط عازوري بين الفكرة القومية التي يدعو إليها وبين الخطر الصهيوني الذي يريد التحذير منه، إذ يشير لضرورة الاطلاع على كتابه الآخر المعنون بـ "الخطر اليهودي العالمي" للتعمّق *"بِمَعْرِفَةِ الحَسَنَات التِي سَتُقَدِّمُهَا القَوْمِيَّات فِي الإِمْبرَاطُورِيَّة العُثْمَانِيَّة لِأُورُوبَّا"*، ويذكر الدافع الذي حثّه للحديث عن اليهود هنا وهو ظهور الحركة القومية العربية *"فِي وَقْتٍ تُوشِكُ فِيهِ إِسْرَائِيل عَلَى النَّجَاحِ فِي خُطَطِهَا الهَادِفَة لِلسَّيْطَرَة عَلَى العَالَمِ"*،[20] ولعله يومئ بذلك إلى المنظمة الصهيونية التي أُنشئت على هامش المؤتمر الصهيوني الأول في مدينة بال (سويسرا) سنة 1897 بغرض التحضير لإقامة دولة إسرائيل في أرض بيت المقدس.

ولاحقا يشير عازوري بشكل يشبه التنبّؤ إلى الصراع العربي–الصهيوني الوشيك الوقوع، وافتتح الحديث عنه بهذه العبارة: *"إِنَّ ظَاهِرَتَيْنِ هَامَّتَيْن، مُتَشَابِهَتَيْ الطَّبِيعَة بَيْدَ أَنَّهُمَا مُتَعَارِضَتَان، لَمْ تَجْذِبَا انْتِبَاهَ أَحَدٍ حَتَّى الآن تَتَضِحَانِ فِي هَذِهِ الآوِنَة فِي تُرْكِيَا الآسْيَوِيَة، أَعْنِي: يَقْظَة الأُمَّة العَرَبِيَّة وَجُهْد اليَهُود الخَفِي لِإِعَادَة تَكْوِين مَمْلَكَةِ إِسْرَائِيل القَدِيمَة عَلَى نِطَاقٍ وَاسِع. وَمَصِيرُ هَاتَيْن الحَرَكَتَيْنِ هُوَ أَنْ تَتَعَارَكَا بِاسْتِمْرَار حَتَّى تَنْتَصِرَ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى، وَبِالنَّتِيجَة النِهَائِيَّة لِهَذَا الصِّرَاع بَيْنَ هَذَيْنِ الشَّعْبَيْن اللَّذَيْنِ يُمَثِّلَانِ مَبْدَأَيْنِ مُتَضَارِبَيْنِ يَتَعَلَّقُ مَصِيرُ العَالَمِ بِأَجْمَعِهِ..."*.[21]

سيكون لنا عودة لتحليل هذا المقطع المهم لاحقا، بيد أن المثير للانتباه بعد ذلك هو الميزان المشترك الذي يضع فيه عازوري كلا من المسألة الشرقية والمسألة اليهودية، إذ يرى أن تعامل الدول الأوروبية مع هاتين المسألتين كان بالقدر نفسه من الإهمال والتقليل من الشأن، فهم ركزوا اهتمامهم على دول البلقان وتركيا الأوروبية وفقا لما تمليه مصالحهم الخاصة، بينما أهملوا –في رأيه– البلاد العربية التي

يكمن فيها الحل الفعلي للمسألة الشرقية، غير أنها —حسب رأيه– مهدّدة باكتساح الخطر الصهيوني إن لم يتم تدارك هذا الأمر.[22]

ويوحي عازوري بأنه خصص كتابه هذا لتبيان أهمية حركة القومية العربية وموقعها بالنسبة للدول الأجنبية الكبرى والقوميات الأخرى في الدولة العثمانية، والخطر الذي يتهدد الحركة العربية من جرّاء الأطماع الصهيونية في فلسطين، وهذا ما دفعه لتشريح سياسات ونَزَعات الدول الكبرى تجاه منطقة "الشرق الأدنى"، وتبيين أيُّ هذه الدول تصلح حليفا للعرب وأيها العدو الذي يجب استبعاده. ويشير إلى أنّه اعتمد في نقده للظاهرة الصهيونية على ما جاء في "الكتاب المقدّس" إذ حاول توضيح خطورة وانحراف التفسير الظاهري والحرفي الذي يقتصر عليه اليهود في القول بحقهم في إقامة دولتهم على أرض فلسطين، محاولا الابتعاد عن الأحكام الدينية التي قد تبعده عن الغرض السياسي والقومي والإنساني من التطرق لهذا الموضوع.[23]

في الفصول التّالية، ينطلق عازوري أول شيء من وصف فلسطين، وهو الوصف الذي أراد به الإشارة إلى أهمية البلاد من جهة وإلى الإهمال الذي طالها جراء السيّاسة العثمانية من جهة أخرى: *"إِذَا أَرَادَ أَحَدٌ دِرَاسَة تَأْثِيرَات حُكُومَة عَمْيَاء بَرْبَرِيَّة عَلَى بِلَادٍ غَنِيَّة، أَنْصَحَهُ بِالتَجَوُّلِ فِي فِلِسْطِين وَسُورْيَا وَالعِرَاق..."*.[24] ويتعرض في هذا الفصل لحدود فلسطين التاريخية والسياسية، وجغرافيتها الطبيعية والاقتصادية والبشرية، حيث يشير إلى أنّ الأرض التي يسعى اليهود إلى امتلاكها هي *"أَكْثَرَ اتّسَاعًا مِنْ التي امْتَلَكُوهَا فِي مُخْتَلَف مَرَاحِل وُجُودِهِم التَّارِيخِي"* ، والحدود الطبيعية بالنسبة إليهم هي: جبل حرمون الذي يحوي منبع نهر الأردن ووادي الليطاني في الشمال، بالإضافة إلى المنطقة المحصورة بين راشيا وصيدا، وقناة السويس وشبه جزيرة سيناء في الجنوب، والصحراء العربية في الشرق، والبحر الأبيض المتوسط في الغرب.[25]

وحين يصوّر عازوري طبيعة ومناخ فلسطين يبدو مفتتنا بها حدّ الإغراء، فهي المنطقة التي تزخر بالسلاسل الجبلية المرتفعة والمتوسطة الارتفاع تمتد على طول غربي الأردن من الشمال إلى الجنوب، تتخللها الأودية والأنهار الوفيرة المياه (مثل نهر الأردن، الليطاني، النعامين، المقطع...) التي تسهم في ريّ وتخصيب المساحات الواسعة التي تجتازها. كما تشتهر فلسطين بالينابيع المعدنية الحارة مثل ما هو موجود في سويسرا، وتختزن من الثروات المعدنية الشيء الكثير كالياقوت والفيروز والعقيق، ومناجم الفحم الحجري والملح والنحاس والحديد، والرخام والكبريت والفوسفور وينابيع البترول.[26]

أما المناخ فهو الأكثر تنوعا واعتدالا في آن واحد، لا بل إنّ الدفء والاعتدال أضفيا سحرا مميزا على المناظر الطبيعية الخلابة في (فلسطين)، فعازوري انبهر بجلال غروب شمس أحد مساءات شهر كانون

الأول في عين جدي بالبحر الميّت أكثر من انبهاره بجمال البوسفور في اسطنبول، وأسرته المناظر في بحيرة طبرية أكثر مما فتنته مدينة القاهرة العامرة، فهو إذ يجري هذه المقارنات يومئ إلى أنّ المميزات الطبيعة التي حبا الله بها فلسطين، علاوة على وجود مقدسات جميع الأديان فيها، يمكنها بقليل من الجهد والاهتمام أن تتحول إلى قبلة سياحية رائدة تستقطب كلّ الأجانب.[27]

لكن بعد هذا الوصف الجميل لجغرافيا وطبيعة فلسطين، ما نلبث أن نصطدم بتصوير قاتم لحالة البلاد في ظلّ الحكم العثماني، فهي في نظر عازوري الأرض الخصبة الممتازة المنتوج التي حولتها السياسة الزراعية العثمانية إلى أرض بور وجرداء لا يُزرع منها سوى العُشُر. والصناعة –في رأيه– كاسدة وغير قادرة على المنافسة، والصادرات التي تخرج من المرافئ الأربعة مجتمعة: صور وحيفا ويافا وغزة، لا تبلغ عائداتها عشرة ملايين فرنك، بينما تصل عائدات تجارة هضبة حوران إلى أربعة وثمانين مليون فرنك وهضبة بئر السبع ثلاثين مليون فرنك، وهي مناطق مستقلة عن الإدارة العثمانية، وهكذا يصل إلى مسلّمة مفادها أنّه *"بِقَدْرِ مَا يَخْضَعُ شَعْبٌ لِلْأَتْرَاكِ يَشْتَدُّ فَقْرُهُ وَتَقْحَلُ أَرْضُهُ..."*.[28]

أما عن السكان فيورد عازوري إحصائيات مثيرة للاهتمام، إذ يقول إن عدد الريفيين في طول المنطقة الممتدة من نهر الليطاني حتى هضبة بئر سبع لم يتجاوز 100 ألف نسمة مطلقا، وعدد سكان المدن 170 ألف نسمة، عدا البدو الذين وصل عددهم إلى 30 ألف نسمة، فيكون المجموع حوالي 300 ألف نسمة، وبالمقابل يذكر أن مجموع السكان اليهود 200 ألف نسمة، يعني هو يساوي تقريبا بين عدد الفلسطينيين واليهود! وعندما يصف حال السكان تحت الحكم التركي فهو يستعين بالصورة القاتمة نفسها ويقول بأنّهم *"يَعِيشُونَ حَيَاةً خَامِلَة وَيَسْكُنُونَ فِي أَكْوَاخ نَتِنَة، لاَ يُعْرَفُ لَوْنُ ثِيَابِهِم تَقْرِيبًا وَلاَ يَتَنَاوَلُونَ سِوَى وَجْبَةَ طَعَام خَبِيثَة وَاحِدَة فِي اليَوْم"*.[29]

أما في الفصول التالية، وعددها ثمانية، فيتطرق عازوري بنوع من التفصيل لسياسات الدول الكبرى تجاه المنطقة العربية الآسيوية، ويرى أن الدول الكبرى تتفاوت في ما بينها في تغذية مشاريع السيطرة على الإمبراطورية العثمانية، وتعمل بصورة مباشرة أو غير مباشرة، ولكن بكثير من الحيوية والثبات على تحقيق أهدافها، فروسيا ترى أن *"الاستيلاء على القدس وسيناء أهم من الاستيلاء على الهند"*، خاصة وأنها كرّست نفسها للدفاع عن المذهب الأرثوذكسي وحماية أتباعه، ويرى عازوري ضرورة التصدي للروس ليس لأنهم أسوأ من الأتراك بل لأنهم أقوى وأخطر. كما أنّه ينظر بعين الريبة للسياسة البريطانية لأنها حليفة السلطان العثماني وتسهم في الحفاظ على وحدة الإمبراطورية العثمانية والإبقاء على أوضاعها المتخلّفة من أجل خدمة مصالحها، لكنه يصنّفها العدوّ الأكثر يقظة وفعالية في وجه الدبّ

الروسي، ويرى أنّ التوجّه الانجليزي عادل ومتحرر، ويمتدح الحكم البريطاني في مصر وعدالته وكفاءته، بل يبرر الوجود البريطاني في مصر، ويرى أنّ المصريين عاجزون عن حكم أنفسهم بأنفسهم.[30]

ومن جهة أخرى يتناول السياسة الفرنسية بكثير من الإعجاب والتحمّس، ففرنسا في نظره هي *"مِشْعَل الحَضَارَة والحُرّيّة الأَسْطَع إِشْعَاعًا، إِلَى جَانِبِ كَوْنِهَا حَامِيَة المُقْهُورِ... تُقَدّمُ المسَاعَدَة الأَسْخَى والأَكْثَر عَفْوِيَّةً لِلْمَظْلُومِينَ وَالتُّعَسَاء، (وهي التي) جَعَلَتْ مِنْ نَفْسِهَا رَسُولاً نَشِيطاً لِلْفِكْرِ الحُرّ..."*، ويؤيّدها في غزوها للجزائر، ويرى أنها تمتلك امتيازات أكثر من غيرها في شطري الإمبراطورية العثمانية الأوروبي والآسيوي، وتنفرد عن الدول الأخرى بحماية الكاثوليك في الشرق، ويمدح أنشطتها التبشيرية والثقافية في بلاد الشام، ويحثها على تكثيف نشاطاتها في سوريا وفلسطين، ويرى أنّ لها السّبق في خلق ديناميكية ثقافية في الشرق، وأسهمت بقوة في إنعاش تعليم اللغة العربية إلى جانب اكتساب اللغات الأجنبية.[31]

لكنّ عازوري يتأسف لأن فرنسا لم تعد تهتم بالبلدان العربية كما كانت، وأهملت –حسب رأيه– موقعها في سوريا وفي كلّ المشرق إرضاءً لحليفتها روسيا، وهو يعيب عليها تخليها عن حماية الموارنة،[32] ويحذّرها أن هؤلاء قد يطلبون حماية بريطانيا، لذلك هو يردّ بغضب على القائلين إنّ سوريا لا تساوي مباني خمس وزارات فرنسية؟ ويرى أن سوريا وفلسطين وبلاد الرافدين أخصب من فرنسا بكاملها، فهي منطقة ذات أهمية حيوية تصل بين ثلاثة محيطات وثلاثة بحار، ويرى أنّ من يستولي على فلسطين يبسط سيطرته على البلاد الأخرى، ويصبح الوكيل والمموّن للقارات الثلاث، وبالتالي يصبح سيّد التجارة العالمية. لكنّه يستدرك بالقول: *"لاَ يَمْلِكُ أَحَدٌ الحَقَّ فِي حُكْمِنَا غَيْرَ فَرَنْسَا، وَلَنْ يَهْتِفَ بِحَرَارَة لِأَيّ دَوْلَة غَيْرِهَا إِذَا نَزَلَت فِي البُلْدَان العَرَبِيَة يَوْمَ يَتَقَرَّرُ تَجْزِئَةَ الإِمْبرَاطُورِيَّة التُّرْكِيَّة"*، وهو يعبّر بذلك عن موقفه من نظام الحماية التي يريدها فرنسية ويصفها بأنّها عمل "خيري" يعود بالفائدة على الشرق.[33]

ويذكر عازوري سياسات بقية الدول الأوروبية بأهمية أقلّ من السابقة، وحسب رأيه أنّ النمسا ليس لها أطماع استعمارية في ممتلكات الدولة العثمانية، وأن بعثاتها إلى سوريا وفلسطين هي مؤسسات خيرية وحسب، بينما دولة ألمانيا التي تسعى للتغلغل في الشرق هدفها ليس البلاد العربية بل السيطرة على بلاد الأناضول، وأشار إلى المستعمرات الألمانية الرائدة في حيفا ويافا التي أقلق وجودُها اليهود، فقاموا بشراء جميع القرى المحيطة بها لمنع الألمان من التوسع، أما إيطاليا فقد يممت وجهها شطر طرابلس الغرب مبتعدة عن مزاحمة الدول الكبرى في الشرق.[34]

ويشير عازوري إلى بروز الولايات المتحدة الأمريكية بوصفها دولة ناشئة لكنها قويّة ومُهابة، وهي حسب رأيه ليس لها علاقة بحيثيات المسألة الشرقية ولا أطماع لها في ممتلكات الدولة العثمانية، وأنّ الذي

يحرّكها هو العاطفة تجاه *"البُؤَسَاء الَّذِينَ يَعِيشُونَ فِي بَلَدٍ غَنِيّ خَصْبٍ أَبْقَتْهُ خِلاَفَات الدُّوَل الأُورُوبِيَّة تَحْتَ عُبُودِيَّة الأَثْرَاك"*، والشيء المثير للاهتمام أنه يقرن بين السياسة الأمريكية والسياسة البريطانية من حيث تشابههما في عدم الاعتراض على تقسيم الدولة العثمانية، والاحتفاظ بإبعاد الروس عن الدردنيل والاسكندرونة وبيت المقدس، ويرى أن تدخّل الولايات المتحدة الأمريكية بات ضروريا بسبب قصور الدول الأوروبية عن تصفية أملاك الدولة العثمانية أمام الخطر الروسي الزاحف إلى المنطقة.[35]

هذه هي العلاقات الدولية والسياسات العالمية في مطلع القرن العشرين كما صوّرها عازوري، وهو لا يرى مستقبلا للعرب سوى في إطار المصالح الغربية، ولا يخشى إلاّ التوسّع الروسي، وإذ يصرّح أن الحركة العربية لا تطلب من الدول الكبرى تضحية أو تدخلا عسكريا، يناشد باسم العرب هذه الدول أن لا تضع العراقيل أمام هذه الحركة، بشرط عدم المساس بأيّ من المصالح الأجنبية في بلاد العرب، ويقول مغازلا الأوروبيين: *"مَا مِنْ رَجُلٍ شَرِيف مُخْلِص يَسْتَطِيعُ أَنْ يَكُونَ مُعَادِيًا لِهذِهِ الحَرَكَة الخَيِّرَة التِي سَتَفْتَحُ مَنْفَذًا وَاسِعًا أَمَامَ التِّجَارَة العَالمِيَّة وَسَتُقَوِّمُ عَدَدًا لاَ يُحَدّ مِنَ التَّوْظِيفَات المفِيدَة وَالأَكِيدَة لِرُؤُوس الأَمْوَال الأُورُوبِيَّة"*.[36]

وفي مقابل هذا يصوّر لنا عازوري السياسة "التركية" بكثير من المقت والنفور والتحامل، فالنظام العثماني في نظره نظام مفلس ومستبد يرتكز على الإرهاب والمنفعة الشخصية والرشوة، ويسمي السلطان عبد الحميد "السلطان الأحمر"[37]، ويصف الدولة العثمانية بـ"الشجرة النّخرة" التي تريد كلّ القوميات الانفصال عنها، بل يستخدم بوضوح مصطلح "تركة الرجل المريض"[38] الذي عبّرت به أوروبا عن مشروعها التوسعي على حساب الدولة العثمانية في إطار ما سُمِّيَ بـ"المسألة الشرقية". وكان عازوري من المعارضين بشدة للوجود العثماني في البلاد العربية، لأنّه يراه السبب الرئيسي لتخلّف البلاد العربية، لذلك كان من أنصار الانفصال وتكوين إمبراطورية عربية مستقلة ولو باستخدام القوّة.[39]

بين الحركة الصهيونية والسياسات الدولية!

لاحظنا أن عازوري خصّص القسم الأكبر من كتابه لتحليل مصالح الدول الكبرى وسياساتها في الشرق الأدنى، وأخذ وصف (فلسطين) وانتقاد نظام الحكم العثماني حيّزا غير قليل من الكتاب، بينما لا نجد الإشارة للخطر الصهيوني والتحذير منه إلا لمامًا في ثنايا الكتاب، وحتى التّعبير عن مشروع الحركة القومية العربيّة لم يكن ذكره بتلك الأهمية التي خصّص لأجلها موضوع كتابه. إنّ هذا التفاوت بين أحجام القضايا التي طرحها عازوري في مؤلّفه يطرح لدينا إشكالا حول علاقة نظرته للحركة الصهيونية وتأثيرها على الحركة العربية بحكمه على السياسات الدولية الغربية؟

لا شك أن عازوري كان واحدًا من الذين اكتشفوا ونبّهوا وحذّروا مبكّرًا من الخطر الصهيوني، ليس على بيت المقدس فحسب بل على البلدان المحيطة بها والعالم أجمع، وربما استفاد في تشكيل نظرته هذه من تردده على فرنسا حيث النشاط الصهيوني المتزايد، أو من خلال عمله مساعدًا لحاكم مدينة بيت المقدس، وكان بلا شك له فضل السبق في استشراف الصراع الذي لم يُحسَم لحد اليوم بين العرب والصهاينة، وهو صراع –كما يبدو من تحليله– ذو طبيعة "قومية"، فحين قال *"إِنَّ ظَاهِرَتَيْنِ هَامَّتَيْنِ مُتَشَاهِتَيْ الطَّبِيعَةِ..."* كان حتما يقصد الحركة الصهيونية والحركة العربية التي تهدف كلّ منهما إلى إقامة وطن قومي خاص، غير أن تواجدهما في نفس المكان سيخلق صداما بينهما يؤدي إلى حرب مستمرة حتى تنتصر إحداهما على الأخرى: *"...وَمَصِيرُ هَاتَيْنِ الحَرَكَتَيْنِ هُوَ أَنْ تَتَعَارَكَا بِاسْتِمْرَار حَتَّى تَنْتَصِرَ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى..."*.

ويبدو أنّ عازوري متأثر إلى حد كبير بالرواية التوراتية حين يعرض بعض الحقائق عن بيت المقدس وعن الحركة الصهيونية، فهو يستعمل مصطلح "فلسطين"،[40] ولم تكن حينئذ قد أخذت شكل وحدة سياسية، للدلالة على حدود "الأرض المقدسة" كما تصوّرها الأوربيون واليهود في نهايات القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، وهي الأرض الممتدة من "دان" في الشمال حتى "بئر السبع" في الجنوب، ومن "البحر المتوسط" في الغرب حتى بادية الشام في الشرق، وهي نفسها حدود بيت المقدس الإدارية غداة فرض الانتداب البريطاني عليها، ولم يكن عبثًا أن يعامل الأوربيون "الأرض المقدسة" في سياساتهم ونشاطاتهم بوصفها وحدة جغرافية وتاريخية،[41] فقد كانت أطماعهم دائما تصل لجميع الأماكن المقدسة، ما حدا بالإدارة العثمانية إلى اتخاذ إجراء تقسيمها إلى ثلاثة سناجق، أحدها وهو "سنجق القدس الشريف" جعلته مرتبطا بشكل مباشر بالباب العالي بسبب مشكلة النزاع حول المقدسات.

وحين ينبّه عازوري للأطماع الصهيونية في بيت المقدس يذكر هذا الأخير كأنّه وطنهم القديم كما يروّج اليهود في أدبياتهم، ويشير إلى مشروع إعادة بنائه أكثر اتساعا من التي امتلكوه في مختلف وجودهم التاريخي، وأنهم لم يمتلكوا منه سوى الضفّة الغربية لنهر الأردن،[42] ورغم أن نقد الرواية التوراتية كان قد بدأ في أوروبا، ومعرفة عازوري باللغة الفرنسية كان يخوّل له الاطلاع على هذه الدراسات والإفادة منها، إلاّ أنّ تفكيره في فهم اليهودية والصهيونية بقي تقليديا،[43] ويبدو أنّه التزم بجعل الرواية التوراتية مصدر معلوماته الوحيد، ولعلّه لم يكن يعنيه مدى أحقيّة اليهود في الأرض المقدّسة بقدر ما كان مهتما بإزاحة خطر الصهيونية من طريق الحركة العربية.

وعندما تطرّق لسبب تناول موضوع الصهيونية في كتابه، برّر ذلك بظهور الحركة القومية العربية *"فِي وَقْتٍ تُوشِكُ فِيهِ إِسْرَائِيل عَلَى النَّجَاحِ فِي خُطَطِهَا الهَادِفَة لِلسَّيْطَرَة عَلَى العَالَم لِتَقْضِي عَلَى تِلْكَ*

الخُطَط" ، وإن كان يومئ هنا إلى المنظمة الصهيونية التي أُنشئت على هامش المؤتمر الصهيوني الأول في مدينة بال (سويسرا) سنة 1897 بغرض التحضير لإقامة دولة إسرائيل في فلسطين، فإنّ عبارته لا تخلو من ميل لنظرية المؤامرة أو خرافة "العبقرية اليهودية والخطط الخفية لليهود للسيطرة على العالم" كما جاءت في "بروتوكولات حكماء صهيون"،[44] فعازوري الذي يخشى من صعود الصهيونية على رأس العالم، يؤمن بأنّ اليهود مجرّد قوّة خفيّة تنشط بمعزل عن القوى الغربية، ويعتقد أن جميع دول العالم ستتضرر من هذه الحركة إذا استتب لها الأمر، بينما الأصل أن الحركة الصهيونية هي صنيعة غربية ووسيلة متقدمة لتفتيت العالم الإسلامي واستغلاله كما سيتم توضيح ذلك لاحقا.

كيف ساهم الغرب في صنع "الدولة اليهودية العازلة"

من الأمثلة التي تساق للدلالة على الرعاية الفرنسية المبكّرة لمشروع الدولة اليهودية، ذلك الإعلان الذي نشره نابليون بونابرت سنة 1799م بعد احتلاله لمصر وسيره نحو بلاد الشام: *"إِنَّ بُونَابَرت يَدْعُو جَمِيعَ يَهُود آسْيَا وَإِفْرِيقْيَا لِيَحْضُرُوا وَيُنَظِّمُوا صُفُوفَهُمْ تَحْتَ لِوَائِهِ لإِعَادَةِ تَأْسِيس أُورْشَلِيمْ كَمَا كَانَتْ فِي الماضِي"* ، وبناءً عليه كان نابليون هو أوّل من دعا لإقامة "مملكة يهودية" في "بيت المقدس" تحت رعاية فرنسا. ويقول الكاتب اليهودي الإسرائيلي أودي أفنيري في كتابه "إسرائيل بدون صهاينة": *"إنّ الصّهيونية لدى نشوئها من حيث المكان والزمان لم تكن فقط جزءًا من آخر موجة للقومية الأوروبية، وإنّما كانت أيضا موجة للتوسّع الامبريالي الأوروبي"!*[45]

وفي بداية الربع الثاني من القرن التاسع عشر جاءت حملة محمد عليّ على الشام وأطماعه التوسعية فيها على حساب الدولة العثمانية، لتؤسس لعهد جديد من التغلغل الأوروبي في المنطقة،[46] وتهيئ البيئة المناسبة لبروز وتطور فكرة "الدولة اليهودية العازلة"، إذ كانت المساعي البريطانية لتوطين اليهود في بيت المقدس قد بدأت تطفو إلى السطح، واستغلت بريطانيا فرصة احتلال محمد عليّ لبلاد الشام لتعرض عليه السماح بهجرة اليهود إلى بيت المقدس، لكنه اعتذر بكون القرار في ذلك يتعلق بسلطة الخليفة العثماني وحده، ورغم ذلك كان محمد عليّ أوّل من سمح لليهود بزيارة حائط المبكى، بل كان أوّل من فتح المجال للتمثيل القنصلي الأوروبي بمدينة بيت القدس، إذ منح أوّل امتياز للقنصل البريطاني سنة 1838، ثمّ توالى دخول المزيد من القناصل الأوربيين في أربعينات القرن التاسع عشر، ما جعل بيت المقدس تقع في دوامة تضارب المصالح بين الدول الأوربية الكبرى، واشتد التنافس بين الدول أيها يبسط نفوذه أكثر على المنطقة، وتحولت بيت المقدس إلى ما يشبه "المحمية الدينية" للدول الغربية.[47]

وعندما أدرك الأوروبيون أن محمد علي أصبح يشكل خطرا على مصالحهم الحيوية في المنطقة، اتحدوا مع السلطان العثماني ضده وسحبوه خارج بلاد الشام، وبقيت فكرة حل المشكلة اليهودية قائمة

في مشاريع الساسة الانجليز، ففي صائفة 1840 أوصى وزير الخارجية البريطاني آنذاك "بالمرستون" سفيره في اسطنبول، أن يسعى بأيّ شكل لإقناع السلطان العثماني وحاشيته بتوطين اليهود ببيت المقدس لجعلهم عازلًا بين الدولة العثمانية ومصر حتى تأمن تهديدات محمد عليّ، وفي الواقع كانت الخطة المبيّتة هي *"العمل على فصل الجزء الإفريقي عن الجزء الآسيوي، ووضع حاجز بشري قوي وغريب يشكّل وعلى قرب من قناة السويس قوّة صديقة للاستعمار وعدوة لسكان المنطقة"* مثلما ورد في تقرير لجنة "كامبل بانرمان" رئيس الوزراء البريطاني الصادر سنة 1907.[48]

وقد برزت المصالح الأوروبية جليا للعيان خاصة بعد حرب القرم (1853- 1856م) التي نشبت بين الروس والعثمانيين بسبب طلب روسيا تسوية مسألة الأماكن المقدسة لصالحها، وتوقيع معاهدة مع الدولة العثمانية تضع بموجبها الكنيسة الأرثوذكسية رسميا تحت حماية الإمبراطورية الروسية، وعندما رفضت الدولة العثمانية ذلك تعرضت للهجوم الروسي؛ وأيقنت فرنسا وبريطانيا خطورة ذلك على مصالحهما الإستراتيجية في الشرق الأدنى، فوقفتا مع الدولة العثمانية ضدّ المطامع الروسية، وكان المقابل تعهّد حكومة اسطنبول بتحقيق إصلاحات تكفل المساواة لصالح رعاياها غير المسلمين[49] ما ساهم في ارتفاع موجة التغلغل الاقتصادي والثقافي الغربي أكثر.

إنّ تنوّع وكثافة المطامح الأوربية في بيت المقدس جعل من هذا الأخير حالة خاصة في المنطقة، بحيث لم يُسمح —حتى قيام الانتداب البريطاني– لأيّ دولة أن تستأثر لوحدها بالسيطرة عليه، وإنّما كانت تتطلب دائما إشرافا أو حكما دوليا روعيت فيه التوازنات الدولية، وبناءً على وصف المصالح الأوروبية في بيت المقدس، أصبح من الواضح أن الحركة الصهيونية لم تكن إلاّ حركة واحدة من جملة الحركات الأوربية في القرن التاسع عشر التي كانت تهدف إلى الاستيلاء على بيت المقدس واستعماره،[50] وقد جاء طرح فكرة إقامة "دولة يهودية عازلة" في بيت المقدس لتكون بمنزلة قاعدة استعمارية للدفاع عن خطوط التجارة غير الآمنة، وللحفاظ على المصالح الأوروبية في الشرق،[51] وإنّ محاولة الفصل بين الحركة الصهيونية وبين السياسات والمصالح الدولية المتشابكة يعدّ ضربا من تمييع القضية وتحجيمها.

وهناك ملاحظة جديرة بالانتباه إليها في تحليلات عازوري بشأن نشاطات القناصل الأجانب وعلاقتهم بالحركة الصهيونية، فهو لا ينكر أنّ القناصل العامين الذين يوجدون في مدينة بيروت ومدينة بيت المقدس يدافعون عن مصالح الصهيونيين ويساعدونهم على التقدّم، ولكنّه يبرر لهم فعلهم هذا بانخداعهم باليهود وعدم تنبههم لخطرهم الدّاهم، ويدعوهم إلى مقاومة هذه الحركة وإضمار العداء لها،[52] ولا غرابة في كلامه هذا، فهو يكرر الموقف نفسه الذي أبداه تجاه سياسة الدول التي يمثلها هؤلاء

القناصل، وهل وُجد القناصل إلاّ ليطبّقوا سياسات بلدانهم؟![53] لكن يبدو أن عازوري يبرّئ الدول الكبرى من مساعدة اليهود ويحمّل المسؤولية لاجتهادات القناصل الفردية فقط!

كيف كانت القومية العربية حلّا في نظر عازوري

لعلّنا نفهم من الأفكار التي بثها عازوري في كتابه عن الخطر الصهيوني، أن القضية التي يركز عليها لم تكن الحركة الصهيونية وخطرها العالمي، بل تحقيق المشروع القومي العربي وتهيئة كل الظروف المناسبة له، فقد دعا إلى مواجهة الحركة الصهيونية برفع شعار "بلاد العرب للعرب"، وناضل طوال حياته من أجل فصل المنطقة العربية الآسيوية عن الدولة العثمانية، دون أن ينتبه إلى أن الصهيونية كانت حلقة من حلقات المسألة الشرقية التي سعت من خلالها أوروبا إلى تمزيق الخلافة والاستحواذ على تركة "الرجل المريض" كما سموها. والغريب أن الربط بين الحركة العربية الناشئة والخطر الصهيوني الدّاهم يدلّ على أنّ عازوري كان مدركا لمدى خطورة الانفصال عن الدولة العثمانية في هذا الوقت بالذات، لذلك كان يبحث عن الحماية لدى الدول الأوروبية، لكن دون أن يتمكن من ربط العلاقة بين المصالح الغربية والحركة الصهيونية.

والمثير للاهتمام أيضا أن حدود الدولة العربية كما صوّرها عازوري هي نفسها المناطق التي تعرّضت للتّقسيم وفق معاهدة سايكس–بيكو، وهي المنطقة التي تمتد من دجلة والفرات إلى خليج السويس ومن البحر المتوسط حتى بحر عمان، مع اعتبار الحجاز كدولة دينية مستقلة. وقد استبعد عازوري من هذه الدولة مصر وشمال إفريقيا، فالمصريون حسب زعمه *"لاَ يَنْتَمُونَ إِلَى العِرْقِ العَرَبِي، فَهُمْ مِنْ عَائِلَةِ البَرَابِرَة الإِفْرِيقِيّين، وَاللُّغَة الَّتِي كَانُوا يَتَكَلَّمُونَهَا قَبْلَ الإِسْلاَم لاَ تُشْبِهُ العَرَبِيَّة قَط"*،[54] وهذا يفسّر لنا أيضا سبب استبعاده لعرب شمال إفريقيا، فهم أيضا لا ينتمون إلى العرق العربي "الصافي" حسب رأيه، ونسي أو تناسى أن السوريين أيضا لم تكن لغتهم الأصلية العربيّة بل "السريانية"، ويبدو جليّا هنا أنّه كان يغازل بريطانيا وفرنسا ويريد استرضاءهما بعدم المساس بممتلكاتهما الإفريقية، أليس هو الذي مدح الحكم الانجليزي في مصر ووصفه بالعدالة والكفاءة، وأقرّ الاحتلال الفرنسي للجزائر واعتبره انتصارا على "القرصنة البربرية" التي كانت تشلّ المتوسط وتهدد التجارة الدولية؟! في حين أنّ فرنسا نفسها هي التي قامت بتقسيم بلده وتجاوزت الحكم الذاتي لجبل لبنان الذي كان يطالب به نحو دولة مستقلة استجابت فيها لمصالحها أولاً وللكهنوت الذي حاربه عازوري ثانياً.

ومما سبق يمكن القول إنّ الفكرة القومية التي نادى بها عازوري لم تكن نابعة من إيمانه بوحدة الانتماء اللغوي للعرب بل كانت على أساس تصنيف "عرقي"، ولا يبدو أنّه كان يريد تأسيس دولة عربية موحّدة بهذه الطريقة، فمشروعه كان انفصاليا بحتا ويوافق الطموحات الغربية في تقسيم الدولة العثمانية. ولم لا يكون موقفه من الحركة الصهيونية هو موقف "عرقي" أيضا؟ فهو ينتقد الصهيونية ويعادي اليهودية

لكنه لا يظهر أيّ اعتراض على السياسات الغربية تجاه المنطقة، بالعكس يرى أنه لا ضرر أن تكون المنطقة تابعة لبريطانيا أو تحت حماية فرنسا، رغم أنّ هاتين الدولتين كانتا في سعي دائم للاستحواذ على بيت المقدس وتوطين اليهود فيه مثلما مرّ ذكره سابقا.

والسؤال الأكثر إلحاحا هنا: هل كان انفصال العرب عن الخلافة العثمانية، وتشكيل دولة مستقلة محمية من طرف الغرب هو فعلا الحل المثالي لصدّ الخطر الصهيوني كما تصوّره عازوري؟ لقد نادى عازوري بضرورة انفصال العرب عن الترك، وقدّم مبرراته لذلك باستحالة صدّ الخطر الصهيوني في إطار دولة مكبّلة بقيود الامتيازات الأجنبية التي كان اليهود يستغلونها خير استغلال، لكنّه في الوقت نفسه يعلن أنّ الحركة العربيّة *"ستفتح منفذا واسعا أمام التجارة العالمية وستؤمّن عددا لا يحد من التوظيفات المفيدة والأكيدة لرؤوس الأموال الأوروبية... وستحترم مصالح أوروبا وكافة الامتيازات والمزايا التي منحها إياها الأتراك حتى اليوم"*،[55] أليس هذا غزلًا صريحًا للدول الكبرى بمنحها الامتيازات أيضا؟ حتى إنّه *"في وقت لاحق، ألمح إلى أنّ إنشاء المستعمرات والمصارف اليهودية يؤدي إلى تقوية القومية العربية بفضل مصالح أقطاب المال في العالم"*،[56] أي في رأيه *"الغاية تبرر الوسيلة"* حسب المبدأ الميكيافيلي. بل إنّه يذهب أبعد من ذلك عندما يعتقد أن قيام كيان عربي مستقل مرهون بالحصول على الحماية الأوروبية، وخصّ فرنسا بهذا "الشرف" لأنها في نظره حاملة *"مشعل الحضارة والحرية وحامية المقهورين"*، ويعلنها صريحة بأن فرنسا هي الدولة الوحيدة التي لها الحق في "حكم" العرب، ولسنا ندري من الذي خوّل له هذا الحقّ ليتكلّم باسم العرب في شأن خطير كهذا؟! هذا على مستوى العلاقات الخارجية للدولة العربية كما تصوّرها عازوري، فمن جهة معادية للصهيونية، ومن جهة متعاونة ومرتبطة بالمصالح الأوروبية واليهودية!

أما على المستوى الداخلي فقد دعا عازوري إلى فصل السلطة المدنية عن السلطة الدينية، والاعتماد على نظام حكم دستوري يرتكز على حرية المذاهب كافة ومساواة المواطنين كافة أمام القانون، مع احترام الحكم الذاتي في لبنان واستقلال إمارات اليمن ونجد والعراق. واقترح قيام خليفة عربي يحكم الحجاز ويتولى الرئاسة الدينية لجميع المسلمين، ويتولى السلطة المدنية أحد أفراد العائلة الخديوية المصرية. ويبرر عازوري سبب تركيزه على فصل السلطتين الدينية والمدنية عن بعضهما بالمحافظة على نفوذ وهيبة "خليفة نبيّ الله"[57] تماما كالنظام البابوي في الكنيسة، ولعلّ ذلك ما دفع هرتزل للقول في مذكراته: *"هناك حركة عربية تهدف إلى جعل أحد أحفاد (محمد) خليفة، السلطان سليم سرق الخلافة ويجب أن ترجع الآن، وكنوع من البابوية تكون مكة بمثابة روما"*،[58] ولمَ لا تكون هذه الشهادة هي موافقة اليهود ضمنيا على شكل الدولة العربية التي عبّر عنها عازوري؟

إنّ فكرة فصل الدين عن الدولة، التي ظهرت عند المفكرين السياسيين المسيحيين في القرن التاسع عشر، قد انطلقت من فكرة "الحاجة إلى حماية الدين نفسه" من الاستغلال السياسي،[59] وهو ما عبّر عنه عازوري بقوله *"لا شيء أكثر تحررا من برنامج (جامعة الوطن العربي) فهي تريد قبل كلّ شيء مصلحة الإسلام..."*،[60] ولعلّ من مصلحة الإسلام في رأيه أن يضعه في برج عاجي بعيدًا عن التأثير والتأثّر بالسياسة *"...ولا يُرتقى إلى سلطته، ويجب أن تبقى عظمته مستقلة"*،[61] ولكنّه في الوقت نفسه لا ينكر على الحركة الصهيونية استخدام الدين لتحقيق أغراضها الاستعمارية: *"أدرك يهود عصرنا أخطاء أجدادهم تماما، لذا يسعون بأناة لتجنبها أثناء إعادة بناء ما يسمونه وطنهم القديم باستيلائهم على الجزء الذي لم يستطع أسلافهم امتلاكه..."*.[62]

كما أنه هو نفسه يبدو متعصبا لمذهبه الديني، فهو يدعو لإنشاء مذهب كاثوليكي قومي عربي موحّد وتأسيس بطريركية خاصة تجمع كلّ المذاهب المسيحية، ويسمي فرنسا *"حامية الكاثولكية في الشرق"* رغم أنّها دولة مدنية، ولا ينكر عليها استخدام الدين غطاء لتمديد نفوذها في العالم: *"...لقد كانوا باستمرار، ناشري المسيحية والكثلكة والديموقراطية..."*، وعلى هذا الأساس دعاها لفرض حمايتها على بلاد الشام والأماكن المقدسة وأكّد لها أن *"السَّيْطَرَة عَلَى المَتَوَسِّط مَوْجُودَة تَحْتَ بَلاَطَات [كنيسة] القِيَّامَة..."!*[63] ألا يقرن هنا بشكل صريح بين الدين والسياسة ويراه وسيلة مشروعة لبسط النفوذ؟ أيجيز للغرب وللمسيحيين عموما ما ينكره على المسلمين؟

إنّ اقتراح عازوري بتقويض الخلافة الإسلامية وإنشاء دولة عربية على أساس عرقي، وفصل الدين عن الدولة، وإقامة مناطق حكم ذاتي (لبنان) تحت حماية أجنبية، وتمييز عرب آسيا عن عرب إفريقيا، واحترام المصالح الأجنبية في المنطقة، هي في الأساس نفس خطة الامبريالية الأوروبية والحركة الصهيونية للسيطرة على الشرق، ولا نعتقد أنه كان يمكن لهكذا مشروع أن يقف في وجه الخطر الصهيوني، لأنه يبدو في كلّ خطوطه يلتقي بالمصالح الغربية والصهيونية من القضاء على الخلافة الإسلامية التي كانت -رغم أخطائها ونقائصها- تمثّل الغطاء الشرعي الوحيد الحامي للعرب والمسلمين في وجه الامبريالية الأوروبية، إلى تهميش "الإسلام" بوصفه مشروعًا حضاريًّا ونهضويًّا كاملًا، إلى اقتراح إقامة دولة عربية ذات توليفة غريبة: مستقلة بدستورها وقوانينها لكنها تخضع لحماية أجنبية! موحّدة حينا في جزئها الآسيوي على أساس عرقي، وموزّعة حينا بين سلطة دينية وسلطة مدنية، ومشتتة حينا آخر بين مناطق ذات حكم ذاتي وإمارات مستقلة! فكيف تلتقي هذه المتناقضات لتحارب "سياسة استعمارية" لها مبدأ واحد وهدف واحد؟

بين المشروع الصهيوني والمشروع القومي العربي

حينما نتأمّل في المصطلحات الثلاثة: بيت المقدس، القومية العربية، الخطر الصهيوني! تعترينا رغبة جامحة في معرفة وتفكيك العلاقة التي جمعت بينها في رأس عازوري حتى أفرد لها هذا الكتاب، ويحدونا سؤال ملحّ: إلى ماذا كان يطمح بالضبط؟ *"... وَمِنْ أَجْلِ أَنْ نُوَفِّرَ عَلَى قَارِئِيه وَصْفًا مُطَوَّلاً لِلْبُلْدَان العَرَبِيَّة، سَوْفَ لَنْ نَدْرُسَ مِنْ هَذَا الكِتَاب سِوَى جُغْرَافِيَّةِ فِلَسْطِين المفَصَّلَة الّتِي تُشَكِّلُ صُورَةَ مُصَغَّرَة كَامِلَة لِلْإِمْبرَاطُورِيَّة العَرَبِيَّة المنْتَظَر تَحْقِيقُهَا"*،[64] بهذه العبارات المقتضبة يفسّر عازوري سبب تركيزه على وصف جغرافيا فلسطين دون بقية المناطق العربية، وفي الواقع يبدو هذا سببا ضعيف الإقناع، وحتى إن كان من الممكن إيجاد نقاط الشبه بين المناطق التي تؤلف بلاد الشام: لبنان، سوريا، الأردن وفلسطين، فكيف يمكن أن نقرن بين جغرافيا فلسطين وبلاد الحجاز أو العراق؟ وحتى من الناحية السياسية والاقتصادية والإستراتيجية كان هناك تفاوت بين المناطق في الأهمية والأنشطة والخصوصيات.

ولعلّ الذي يبدو مقنعا أكثر هو ما عبّر عنه عازوري لاحقا بالقول *"...فِلَسْطِين هِيَ النُّقْطَة الأَكْثَر أَهَمِّيَة، وَكَمَا قِيل هِيَ المفْتَاح لِهَذَا الجِسْر. إِنَّ مَنْ يَسْتَوْلِي عَلَى هَذَا البَلَد يَبْسُطُ سَيْطَرَتَهُ عَلَى كُلِّ البِلاَدِ الأُخْرَى، وَيُصْبِحُ الوَكِيل وَالممَوّن لِلْقَارَّات الثَّلاَث دُفْعَةً وَاحِدَة، وَبِالتَّالِي يُصْبِحُ سَيِّدَ التِّجَارَة العَالمِيَّة"*،[65] وقارنه إذا شئت بما قاله في "وصف فلسطين"، فكأنّه عندما تغزّل بجمالها الأخّاذ وتغنّى بطبيعتها الخلابة وثرواتها المتكدّسة، كان يريد إغراء أحد بامتلاكها أو احتلالها أو فرض حمايته عليها؟ ولم لا يكون هذا الأحد هو فرنسا التي قال فيها *"لاَ يَمْلِكُ أَحَدٌ الحَقَّ فِي حُكْمِنَا غَيْرَهَا"*؟ بلى، لقد قالها بشكل صريح لها: *"...إِنَّ السَّيْطَرَة عَلَى المتَوَسِّط مَوْجُودَة تَحْتَ بَلاَطَات [كنيسة] القِيَّامَة... حَتَّى عِنْدَ انْفِصَالِ الكَنِيسَة عَنِ الدَّوْلَة، لاَ يَجِبُ التَّخَلِّي عَنْ هَذِهِ المحْمِيَّة المقَدَّسَة التِي تَتْبَعُ فَرَنْسَا بِمُوجَبِ مُعَاهَدَات مُوَقَّعَة مَعَ السُّلْطَان وَلَنْ يَسْعَى البَابَا لاِنْتِزَاعِهَا مِنْهُ"*.[66]

وفي مشروعه لتنمية فلسطين بعد إخراجها من الحكم العثماني، يقترح عازوري الاستناد على أربع قواعد أساسية هي *"إدارة صالحة وعدالة صارمة وشرطة مستقيمة وقوانين حكيمة"*، ويوصي بمنح الموظفين رواتب عالية وترقيات عادلة لضمان نزاهتهم وإخلاصهم، ويقول إنّ هذا كاف لجعل فلسطين بلدا عظيما في بضع سنوات،[67] وفي رأيه هذا كافٍ أيضا لمواجهة الخطر الصهيوني، لكنّه لا يذكر شيئا عن النفوذ الغربي الذي عمل على ربط اقتصاد المنطقة بالاقتصاد الرأسمالي العالمي، بل لعله يومئ إلى تحقيق مشروعه التنموي في إطار "حماية أجنبية"، تماما كما اعتقد بحدوثه لمصر التي ضرب بها مثلا عندما أضاف *"...بِهَذِهِ الطَّرِيقَة صَنَعَ الانْجلِيز فِي مِصْر مَا تَرَاهُ اليَوْم"*، وقوله *"لمْ يَكُنْ مَرْدُودُ مِصْر السَّنَوِي مَذْكُورًا فِي ظِلِّ الإِدَارَة التُّرْكِيَّة، أَمَّا اليَوْم فَفَوَائِد الخِزَانَة المصْرِيَّة تَفُوقُ عَوَائِدِ الإِمْبرَاطُورِيَّة العُثْمَانِيَّة"*![68]

إنّ من يقرأ لعازوري فصله في وصف فلسطين بهدوء وتأنّ، سيبدو له كأنّه يخاطب جهة ما يهمّها أن تعرف هذه المعلومات لتتخذ بشأن البلد قرارًا بضمّه إليها، ولنقرأ مثلا الوصف البديع الذي خصّ به الأنهار والثروات المعدنية والأراضي الخصبة غير المستغلة إلا قليلا على ضفاف الأنهار، والصناعات المحلية المتنوعة والسكان الودوعين المضطهدين، والمناخ المعتدل الرائق والمناظر الطبيعية الفاتنة، ليصل في النهاية إلى القول: *"بِالتَّأْكِيد سَتَزْدَحِمُ شَوَاطِئ بُحَيْرَة طَبَرِيَّا الجَمِيلَة الضَّاحِكَة وَضِفَاف البَحْر المَيّت المهِيبَة بِالدَّارَات الرَّائِعَة وَالفَنَادِق البَاذِخَة، دُونَ إِزْعَاج الحُكُومَة البَرْبَرِيَّة وَمُضَايَقَاتِهَا... وَسَيَأْتِي الأَجَانِب كُلّ عَامٍ بِأَعْدَادٍ ضَخْمَةٍ لِقَضَاءِ فَصْلِ الشِّتَاءِ فِي الأَرَاضِي المقَدَّسَةِ حَيْثُ سَيَنْشُرُونَ الغِنَى وَالرَّاحَة عِنْدَمَا تَزُولُ هَذِهِ المكَدِّرَات"*.[69]

ولنقارن هذا الكلام بالصورة القاتمة التي صوّر بها البلاد في ظلّ الحكم العثماني، إنّ فلسطين عند عازوري رغم شساعة مساحتها وخصوبة أراضيها وتعدد مجاري المياه التي تخترقها، ضعيفة الإنتاج وشبه خالية من السكان، والمهاجرون اليهود يقارب عددهم السكان العرب، والوضع الاقتصادي متدهور إلى درجة أن معظم السكّان يبيعون أراضيهم عند غارة جراد! والإدارة مجزّأة ومشتّتة وتسيطر عليها الفوضى، واليهود استغلوا هذا الوضع للمضيّ في تحقيق أطماعهم، ولخّص كلّ ذلك في عبارة: *"مِنْ جِهَة يُوجَدُ الشِّقَاق وَعَدَم الانْتِظَام وَالجَهْل وَالبُؤْس (لدى العرب)، وَمِنْ جِهَةٍ أُخْرَى يُوجَدُ الاتّحَاد وَالمرْكَزِيَّة وَالجِهَة الموَجِّهَة بِالفِكْرَة الوَاحِدَة بِنَاءً عَلَى تَصْمِيم رُسِمَ سَلَفًا (لدى اليهود)"*.[70]

إنّ عازوري هنا لا ينتقد فقط النظام العثماني المستبد والظالم في نظره، ولكنه يقلّل أيضا من شأن البلد وأهل البلد، ويوحي للقارئ أنّ هذه الأرض كانت *"بلا شعب فاستحقّت أن يأخذها شعب بلا أرض"*، وهي الفكرة التي روّجت لها الأوساط الغربية لتبرير انتزاع الأرض في بيت المقدس، ومازالت لحدّ اليوم تُستخدم في الإعلام الغربي والصهيوني حجة للاحتلال! وهناك من اتّكأ على رأي عازوري ليوجّه التهمة للفلسطينيين ببيع أراضيهم لليهود، ويتهم الدولة العثمانية بالتخلي عن بيت المقدس![71]

يقول أحد الملاحظين *"صحيح أنّ فلسطين لم تشهد في الفترة التي نعالجها تطورا سريعا كالذي حدث في مصر المجاورة في عهد الخديوي إسماعيل (1863- 1879)، ولكنّها لم تبق أيضا الفناء الخلفي للدولة العثمانية كما حاول البعض إيهامنا به مرارا، إذ إنّ الستينات كانت بمثابة المفصل في تطوّر البلاد في القرن التاسع عشر، كانت مرحلة تحولات إدارية سياسية واقتصادية اجتماعية عميقة الجذور"*. ويضيف أن عدد السكان في النصف الثاني من القرن التاسع عشر كان يقارب 470 ألف نسمة وشكّل اليهود 5% فقط منهم[72]، وهو بأيّ حال رقم بعيد عن الإحصائيات التي أوردها عازوري.

ورغم أنّ نقد عازوري للنظام العثماني كان يدور فقط حول فساد السلطان عبد الحميد والتسبب بسياسته الاستبدادية في تعريض البلاد للخطر الصهيوني، فإنّه لا يأتِي أبدا على ذكر الجهود التي قام بها السلطان لصدّ الهجرات اليهودية ومنعها عن بيت المقدس، فقد أصدر السلطان لأوّل مرّة سنة 1887 أوامر تحظر الاستيطان اليهودي في بيت المقدس وعلى وجه الخصوص في المدينة المقدسة، وعازوري حينها كان لا يزال طفلا! وتتابعت بعد ذلك الفرمانات السلطانية التي كان يكتبها عبد الحميد بخط يده ضدّ الهجرة اليهودية، وتعرّض بسبب ذلك إلى ضغوط كبيرة من الدول الكبرى وكبار ساسة اليهود (مثل هرتزل)،[73] وهو الأمر الذي ساهم بلا شك في خسارته لعرشه بعد انقلاب الاتحاديين عليه سنة 1908!

ولسنا ندري من أين جاءت الثقة لعازوري ليؤكّد بأنّ *"الحُكَّامَ الأَتْرَاك.. لَمْ يَرْفَعُوا إِلَى حُكُومَاتِهِمْ تَقَارِيرَ يُلْفِتُونَ نَظَرَهَا إِلَى خُطَطِ اليَهُودِ وَتَنْظِيمِهِمْ وَغَزْوِهِمْ لِفِلَسْطِين"!؟*[74] فالأرشيف العثماني يضجّ بالوثائق والتقارير التي تثبت عكس ذلك، وهناك موظفون حرصوا فعلا على تنفيذ تعليمات السلطان بمنع هجرة اليهود ومنع بيع الأراضي لهم، وهذا لم يمنع أيضا من وجود موظفين فاسدين باعوا ذممهم لليهود وساهموا في حصولهم على الأراضي مقابل رشاوي كبيرة.

وخلاصة القول، إنّ عازوري عمل فعلا على فضح المشروع الصهيوني، ودقّ ناقوس الخطر ضدّ الحركة الصهيونية، وحذّر من تبعات صعودها ونفوذها في قلب المنطقة العربية، لكن الحلول التي اقترحها لصدّ هذا الخطر كانت موجّهة فقط لإنقاذ "المشروع القومي العربي" وتمكين أسباب نجاح الحركة العربية في الانفصال عن الدولة العثمانية وتشكيل إمبراطورية مستقلة تحت حماية أجنبية، لذلك فهو لا يرى بأسا من دعوة الدول الغربية لمساعدة العرب في حركتهم القومية، رغم أن هذه الدول نفسها تدعم بشكل كامل قيام دولة إسرائيل في الأرض المقدسة!

الخاتمة

لعل التكوين الغربي الذي تلقاه عازوري في طفولته وشبابه هو الذي رسم فيما بعد بكلّ هدوء معالم شخصية متفتحة على الثقافة الغربية ومتقبلة للأفكار القومية الانفصالية ومتحمسة للحكم الأجنبي على بلاد المسلمين. ورغم أن عازوري كان من أوائل من تفطن للخطر الصهيوني على بيت المقدس وعلى المنطقة والعالم أجمع، ولكن نظرته لخلفيات الحركة الصهيونية وأبعادها ومراميها ووسائلها كانت قاصرة ومغلوطًا فيها في بعض الجوانب، خاصة في علاقة الصهيونية بالإمبريالية الاستعمارية.

ولا شكّ أن كتاب عازوري قد انطوى على أفكار مثيرة حقا للاهتمام، مثل التنبيه للخطر اليهودي العالمي، والجمع بين بروز الحركة العربية وصعود الحركة الصهيونية والصراع الحتمي الذي سوف يجمعهما حتى تنتصر إحداهما على الأخرى، وهو صراع قومي حسب رأيه، لا سياسي ولا حضاري! غير

أن مواقفه من السياسات الغربية تأرجحت حسب رؤيته للمصالح الإستراتيجية التي قد تؤثر في علاقة العرب بهذه الدول، فقد لمسنا إعجابه بسياسة الفرنسيين ودعوته لهم لبسط حمايتهم على الأرض المقدسة والشرق عموما، ولاحظنا رضاه عن سياسة الإنجليز والأمريكان، وفي المقابل أبدى نقمة شديدة حيال الأطماع الروسية في المنطقة العربية وحذّر منهم تماما كما حذّر من الخطر الصهيوني.

وكان عازوري في تناوله لجغرافيا فلسطين مستأنسا حينا بالرواية التوراتية التي يروج بها اليهود لأحقيتهم بامتلاك الأرض المقدسة، ومنسجما تارة أخرى مع تصورات الأوروبيين واليهود لحدود الأرض المقدسة كما تخدم مصالحهم، وقد ركّز بشدة على وصف جمال البلد وثرائه وأهميته الإستراتيجية في حوض المتوسط بشكل يوحي كأنه يغري باحتلاله أو يدعو لإنقاذه من أيدي "الأتراك" الذين أساؤوا استغلاله حسب رأيه. ونادى عازوري بضرورة انفصال العرب عن الدولة العثمانية، لأن "الأتراك" في نظره سبب تخلف العرب وتدهور أحوالهم، لكنه لم ير مانعا في استغلال الدول الأجنبية لثروات العرب، بل يذهب لحدّ الاعتقاد أن قيام كيان عربي مرهون أساسا بوجود حماية أجنبية، وهنا يظهر لنا التناقض الشديد بين أفكاره، ففي الوقت الذي يسعى فيه إلى فصل العرب عن الخلافة الإسلامية، يرتمي بكل ثقله في أحضان الغرب الذين لا يرى فيهم أيّ قصور أو خطر يمكن أن يهدّد مستقبل المنطقة.

لعلّ عازوري كان منتبها فعلا لخطورة الحركة الصهيونية، لكنه كان جاهلا إلى حدّ الغفلة بأساليب السياسة الغربية في تعاطيها مع "المسألة الشرقية"، وحتى لو نظرنا إلى الأمور بمنظار زمنه الذي عاش فيه وافترضنا عدم وضوح الرؤية في ذلك الوقت المبكر، وسلّمنا بأنّ العصبية الدينية غلبت على فكره وتوجهه السياسي، فلا يوجد ما يبرر موقفه المتلوّن من الاستعمار بجميع أشكاله وصوره، فنظرته للاستعمار الغربي تبدو قاصرة ومتناقضة، ولعلّه حين نبّه للخطر الصهيوني كان يقصد فقط إثارة مشاعر العرب تجاه قضية حساسة جدا لديهم من أجل تمرير نظريته القومية، فهو يتناول المشروع الصهيوني في كتابه وكأنّه سيسلب من العرب مشروعهم القومي فحسب، وليس بوصفه حلقة متكاملة مع السياسة الغربية تهدف بالأساس إلى *"محاربة اتحاد الجماهير العربية وارتباطها بأيّ نوع من أنواع الارتباط الفكري أو الروحي أو التاريخي"* كما عبّرت عنه لجنة "كامبل بانرمان" رئيس الوزراء البريطاني سنة 1907![75]

إنّ نظرة عازوري لسياسات الدول الكبرى في الشرق الأدنى بعين الرضا، وتوجيه كل جهوده لمحاربة العدوّ "الخطأ" (العثمانيين)، جعله يغفل عن حقيقة أن الحركة الصهيونية كانت أولًا وآخرًا عبارة عن انتصار لمطامع الدول الأجنبية، وأنّ مواجهة هذا الخطر يكون بالردّ الشامل على الاستعمار، ويكون بتوحيد الصف والاعتماد على سواعد أبناء البلد، وليس بالتفرقة والتشتت والاستعانة بالأجنبي!

الهوامش

1 نجيب عازوري، **يقظة الأمة العربية**، تعريب وتقديم أحمد بوملحم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1978، بيروت- لبنان، ص13 (مقدمة المترجم).

2 أسعد رزوق، "نجيب عازوري الوحدوي المجهول"، في مجلة **المستقبل العربي**، السنة 1، العدد 4، نوفمبر 1978، ص89.

3 **المرجع نفسه**، ص90. عازوري، **المصدر السابق**، ص17 (مقدمة المترجم).

4 عازوري، **المصدر نفسه**، ص43 و65 وما بعدها.

5 انظر في: **المصدر نفسه**، ص61 وما بعدها.

6 مما جاء في كتابه: "... بسبب هذا النظام يترك كلّ الرجال الودعاء والمثقفين والمستقيمين في فلسطين وسوريا والعراق أرض الوطن ويذهبون للتفتيش عن السلام والهدوء في ظلال العلم البريطاني الذي يرفرف على ضفاف النيل. هكذا أصبحت مصر بالنسبة لعرب تركيا ملجأ ومدرسة..." لطفا انظر في: **المصدر نفسه**، ص69.

7 **المصدر نفسه**، ص43.

8 انظر: رزوق، **المرجع السابق**، ص92.

9 BOA, HR.SYS., 1804/37.

10 جورج أنطونيوس، **يقظة العرب**. **تاريخ حركة العرب القومية**، ترجمة ناصر الدين الأسد وإحسان عباس، دار العلم للملايين، بيروت، ط.8، 1987، ص172.

11 سهيلا سليمان الشبلي، **المشروع الصهيوني وبدايات الوعي العربي لمخاطره 1897– 1917**، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2016، ص35. يُعتقد أن "عصبة الوطن العربي" كانت ضعيفة التأثير في العرب، ولا يُعرف أحد من رجالات العرب كان على ارتباط بها، ويقول المستشرق الألماني ريتشارد هارتمان (الذي نشر عنها دراسة سنة 1944) إن الدراسات الكثيرة عنها في أوروبا أظهرتها ذات نفوذ أكبر بكثير مما كانت عليه في الواقع! رزوق، **المرجع السابق**، ص87– 88.

12 انظر: رزوق، **المرجع السابق**، ص88. محمد جميل بيهم، **قوافل العروبة ومواكبها خلال العصور**، ج. 2، مطابع دار الكشاف، بيروت، 1950، ص20.

13 عنوانه الكامل بالعربية: **يقظة الأمة العربية في تركيا الآسيوية إزاء وجود مصالح لكل من الدول الكبرى الأجنبية والكرسي الرسولي والبطريركية المسكونية واشتداد التنافس فيما بينها: الجزء الآسيوي من المسألة الشرقية وبرنامج جامعة الوطن العربي**. وبالفرنسية:
Negib Azoury, *Le réveil de la nation arabe dans l'Asie turque en présence des intérêts et des rivalités des puissances étrangères, de la curie romaine et du patriarcat œcuménique: partie asiatique de la question d'Orient et programme de la Ligue de la patrie arabe*.

14 انظر: عازوري، **المصدر نفسه**، ص22 (مقدمة المترجم).

15 راجع في هذا الشأن وثائق الأرشيف العثماني: MF.MKT. 823/97 و MF.MKT. 824/59

16 أنطونيوس، **المرجع السابق**، ص173.

17 الشبلي، **المرجع السابق**، ص37– 38.

18 توصف فلسفة إسرائيل السياسية عادة بلفظة "الصهيونية". والصهيونية فكرة دينية في جزء منها وتاريخية في الجزء الآخر، تزعم بأن السكان اليهود في العالم لهم حق المطالبة بتلك الأرض في الشرق الأوسط والتي شغلها واستقر فيها العرب الفلسطينيون طيلة ما ينيف على الألف سنة؛ ترجع الجذور الدينية للفكرة الصهيونية إلى سلسلة من الأساطير التوراتية التي تزعم أن اليهود هم شعب الله المختار، وأن تشتتهم على زمن الإمبراطورية الرومانية ليس إلا أمرا مؤقتا، وأن مجيء المسيح المنتظر، سوف يؤذن ببدء إعادة تجميع اليهود في فلسطين، أرض أجدادهم. لطفا انظر: جون روز، **إسرائيل: الدولة الخاطفة (كلب الحراسة الأمريكي في الشرق الأوسط)**، دار الحمراء، بيروت، 1990، ص47

19 عازوري، **المصدر السابق**، ص37– 38.

20 **المصدر نفسه**، ص39.

21 **المصدر نفسه**، ص56.

22 **المصدر نفسه**، ص41.

23 **المصدر نفسه**، ص42– 43.

24 **المصدر نفسه**، ص41.

25 **المصدر نفسه**، ص47 و49.

26 **المصدر نفسه**، ص51- 55.

27 **المصدر نفسه**، ص72- 73.

28 **المصدر نفسه**، ص56.

29 **المصدر نفسه**، ص60.

30 **المصدر نفسه**، ص81 و103.

31 **المصدر نفسه**، ص115 وما بعدها.

32 عاتب عازوري فرنسا لأنها رفضت سنة 1903 إرسال الأسطول البحري إلى بيروت لاستعراض قوته بعد وقوع بعض الاضطرابات، ورفض الأسطول البحري الفرنسي سنة 1904 أن يحيي مطرانيين مارونيين جاءا لتهنئة الأميرال، ويقول إن المارونيين اعتقدوا أن هذين التصرفين يشيران إلى تخلي فرنسا عن حماية الكاثوليك في الشرق... أنظر: **المصدر نفسه**، ص132- 133.

33 **المصدر نفسه**، ص124- 125 و71.

34 **المصدر نفسه**، ص139 وما بعدها.

35 **المصدر نفسه**، ص155- 156.

36 **المصدر نفسه**، ص134 و217 و37- 38.

37 أفصح ضابط يوناني اسمه ليونيدوس دواس "أن الصهاينة هم الذين أطلقوا على السلطان عبد الحميد اسم (السلطان الأحمر)، لأنه لم يصبح أداة طيّعة لآمالهم الشيطانية وقاومهم بعزم ثابت. واتخذوا جبهة معادية ضدّه، فقاموا ببث دعايات مغرضة عن معاملاته السيّئة للطوائف غير المسلمة التي كانت تحت حكمه وأنّه يضطهدهم..." انظر: فاضل بيات، **دراسات في تاريخ العرب في العهد العثماني– رؤية جديدة في ضوء الوثائق والمصادر العثمانية**، دار المدار الإسلامي، بيروت، 2002، ص463.

38 انظر: عازوري، **المصدر السابق**، ص120 و134 و181.

39 انظر: **المصدر نفسه**، ص56.

40 المنطقة المقصودة بالتسمية هنا (فلسطين حاليا) كانت مقسمة إداريا إلى ثلاثة سناجق: سنجق القدس الشريف؛ يشمل الخليل وغزة ويافا (أصبح منذ **1874** مستقلا وتابعا لإسطنبول مباشرة)، سنجق نابلس يشمل جنين وعجلون والصلت، سنجق عكا يشمل حيفا والناصرة وطبريا وصفد، نابلس وعكا كانا تابعين لولاية بيروت. وهذا التقسيم كان متعمدا بسبب التنافس الدولي الشديد على الأماكن المقدّسة، والتدخل الأجنبي السافر في بيت المقدس، والتخوّف من الاستحواذ عليها وفصلها عن جسم الدولة العثمانية.

41 راجع في هذا الشأن: الكزاندر شولش، **تحولات جذرية في فلسطين 1856– 1882، دراسات حول التطور الاقتصادي والاجتماعي والسياسي**، ترجمة كامل جميل العسلي، ط.2، عمان- الأردن، 1414هـ- 1993م، ص20 وما بعدها.

42 عازوري، **المصدر السابق**، ص48

43 صقر أبو فخر، "الصهيونية والحماية بين أنطون سعادة ونجيب عازوري"، في مجلة **تحولات نحو مجتمع جديد** (النسخة الالكترونية)، www.tahawolat.net، تاريخ النشر: **2015/10/28**، تاريخ الاطلاع عليه: **2017/08/28**.

44 أبو فخر، **المرجع نفسه**.

45 إبراهيم بكر، **مؤتمر السلام والمفاوضات المباشرة مع إسرائيل**، المؤسسة الصحفية الرأي، عمان، شباط 1992، ص264.

46 راجع في هذا الشأن: شولش، **المرجع السابق**، ص60 وما بعدها.

47 **المرجع نفسه**، ص61- 62.

48 علي عبد المنعم شعيب، **التدخل الأجنبي وأزمات الحكم في تاريخ العرب الحديث والمعاصر**، دار الفارابي، بيروت، 2005، ص153- 154 و176.

49 روبار مونتران وآخرون، **تاريخ الدولة العثمانية**، جزآن، ترجمة: بشير السباعي، دار الفكر، القاهرة، ط.1، 1992، ج. 2، ص133- 135.

50 انظر المزيد في: شولش، **المرجع السابق**، ص59 وما بعدها.

51 زهير الصباغ، الدولة العثمانية بريطانيا وتطور فكرة الدولة اليهودية، في مجلّة **تحولات نحو مجتمع جديد** (النسخة الالكترونية)، www.tahawolat.net، تاريخ النشر: **2015/10/28**، تاريخ الاطلاع عليه: **2017/08/28**.

52 عازوري، **المصدر السابق**، ص75.

53 انظر المزيد في: نائلة الوعري، **دور القنصليات الأجنبية في الهجرة والاستيطان اليهودي في فلسطين 1840– 1914**، دار الشروق للنشر، عمان، 2007.

54 عازوري، **المصدر السابق**، ص219.

55 **المصدر السابق نفسه**، ص37- 38. و219.

56 ألبرت حوراني، **الفكر العربي في عصر النهضة 1798– 1939**، ترجمة كريم عزقول، دار النهار للنشر، بيروت، بدون تاريخ، ص333.

57 عازوري، **المصدر نفسه**، ص219– 220. يبدو أن عازوري يقتبس أفكاره هنا من عبد الرحمان الكواكبي (1849– 1903) الذي نادى بنزع الخلافة من الأتراك وإعادتها للعرب، مشترطا أن يكون الخليفة قريشيا وأن تشمل سلطته الدينية كافة المسلمين، على أن يقتصر سلطانه الزمني على الحجاز فقط، وكانت هذه أول مرة يتقدم فيها مفكر عربي مسلم بمشروع لإنشاء دولة وطنية تُفصل فيها السلطة التنفيذية عن الدين. لطفا انظر: سليمان موسى، **الحركة العربية المرحلة الأولى للنهضة العربية الحديثة 1908– 1924**، دار النهار، بيروت، 1977، ص23.

58 الشبلي، **المرجع السابق**، ص35.

59 هشام شرابي، **المثقفون العرب والغرب**، دار النهار، بيروت، ط.2، 1981، ص88. ويذكر حوراني أنّ معظم الكتّاب المسيحيين كانوا متخوفين من أن تتكشف "القومية العربية" عن شكل جديد من أشكال التسلّط الإسلامي، ولم يكن بإمكانهم إزالة هذا التخوّف إلاّ بإحدى طريقتين: الأولى أن يجاروا الأكثرية... والثانية أن يصبّوا في قالب مفهومهم للعروبة محتوى مفهومهم للبنان أو لسوريا، فيحلموا بأمة عربية تكون منفصلة عن أساسها الديني، وتضم – بدون أي وجه من وجوه التفريق– المسلمين والمسيحيين معا، وتتمتع بحماية أوروبية، وهذه الطريقة الثانية هي التي اختارها عازوري. انظر في: **المرجع السابق**، ص331.

60 عازوري، **المصدر السابق**، ص219.

61 **المصدر نفسه**، ص220.

62 **المصدر نفسه**، ص49.

63 **المصدر نفسه**، ص118 و125.

64 **المصدر نفسه**، ص39.

65 **المصدر نفسه**، ص71.

66 **المصدر نفسه**، ص125.

67 **المصدر نفسه**، ص69– 70.

68 **المصدر نفسه**، ص70.

69 **المصدر نفسه**، ص73.

70 **المصدر نفسه**، ص74.

71 لطفا راجع في هذا الشأن مقال: جان داية، "تواطؤ والي القدس وصمت السلطان عبد الحميد وراء ضياع فلسطين"، في **مجلة العربي**، الكويت، العدد 504، سنة 2000م. والدراسة النقدية للمقال لدى: رياض زيد، "يقظة العرب والوجه الآخر لعازوري"، في: www.zaid-family.com، تاريخ النشر: 15/ 01/ 2001، تاريخ الاطلاع عليه: 11/ 08/ 2017.

72 شولش، **المرجع السابق**، ص335 و328.

73 بيات، **المرجع السابق**، ص449 وما بعدها.

74 عازوري، **المصدر السابق**، ص75.

75 عبد المنعم شعيب، **المرجع السابق**، ص176.